تعريف بالقصة(*)

[هو عروة بن حزام بن مالك بن ضبة بن عبد بن عذرة، شاعر لبيب حاذق، متمكن في العشق، قيل إنه أول عاشق مات بالهجر من المخضرمين أو من العذريين، ولشدة مقاساته في العشق ضرب به المثل بين العرب والمولسدين].

قال المجنون:

عجبتُ لعروةَ العذريِّ أمسى ... أحاديثاً لقومٍ بعدَ قومِ
وعروةُ ماتَ موتاً مستريحاً ... وها أنذا أموتُ كلَّ يوم

وقال قيس لُبنى:

وفي عروةَ العذريّ إنْ متُّ أسوةٌ ... وعمرو بنِ عجلانَ الذي قتلتْ هندُ
وبي مثلُ ما قد نابَهُ غيرَ أنني ... إلى أجلٍ لمْ يأتني وقتُه بعدُ

وقال جرير:

هل أنتِ شافيةٌ قلباً يهيمُ بكمْ ... لم يلقَ عروةُ مِن عفراءَ ما وَجدا
ما في فؤاديَ من داءٍ يخامره ... إلا التي لو رآها راهبٌ سجدا

وقال أبو عيينة:

فما وجد النهديُّ إذ مات حسرةً ... عشية بانت من حبائله هندُ

(*) داود الأنطاكي: في كتاب «تزيين الأسواق».

ولا عروةُ العذريُّ إذ طال وجدهُ بعفراء حتى شفّ مهجَته الـوجدُ
كوجدي غداةَ البينِ عندَ التفاتِها وقد طأر عنهـا بين أترابِهـا البردُ

إلى غيـــر ذلــك.

وعفراء هي بنت هصر أخي حزام، كلاهما ابنا مالك، من بطن من العذريين يقال له «نهد» قال في تسريح النواظر: إنَّ سبب عشقه لها أنَّ أباه حزاماً توفي ولعروة من العمرِ أربعُ سنين، وكفله هصر أبو عفراء فانتشئا جميعاً، فكان يألفها وتألفه، فلما بلغ الحلم سأل عروة عمه تزويجها فوعده ذلك ثم أخرجه إلى الشام ببعيرٍ له، وجاء ابن أخ له يقال له أثالة بن سعيد بن مالك يريد الحج فنزل بعمه هصر، فبينما هو جالس يوماً تجاه البيت إذ خرجت عفراء حاسرة عن وجهها ومعصميها تحمل جداوة سمن وعليها إزار خز أخضر، فلما رآها وقعت من قلبه بمكانة عظيمة. فخطبهـا من عمه فزوجه بها. وإن عروة أقبل مع العير وقد حمل أثالة عفراء على جمـل أحمر، فعرفها من البعد وأخبر أصحابه، فلما التقيا وعرف الأمر بهت لا يحير جواباً حتى افترق القوم فأنشد:

وإني لتعـروني لـذكـراكِ رعـدةٌ لهـا بينَ جلدي والعـظامِ دبيبُ
فمـا هــوَ إلا أن رآهــا فجـأةً فـأبهتَ حتى مـا يكـاد يجيبُ

وحين وصل الحي أخذه الهذيان والقلق وأقام أياماً لا يتناول قوتاً حتى شفت عظامه ولم يخبر بسره أحداً. وكان باليمامة عراف يقال له رياح بن راشد فحملوه إليه فلما رآه أخذ يعالجه بأنواع العلاج والرُّقى فلما لم ينجع ذلك أخبرهم أن ما به ليس إلا من العشق. فلما أحس عروة باليأس أنشد:

فقلتُ لعـرّافِ اليمـامـةِ داوني فـإنـكَ إنْ أبـرأتَـني لـطبـيبُ
فما بيَ من حُمَّى ولا مسِّ جنّةٍ ولكنَّ عمي الحميْـرَيّ كـذوبُ

بنا من جوى الأحزانِ والبعدِ لوعةٌ تكادُ لها نفسُ الشفيقِ تذوبُ
وما عجبي موتُ المحبينَ في الهوى ولكنْ بقاءَ العاشقينَ عجيبُ

وحُمل إلى عراف آخر بنجد ففعل به مثل ذلك فأنشد في نونيته:

جعلتُ لعرَّافِ اليمامةِ حكمةً وعرَّافِ نجدٍ إنْ هما شفياني
فما تركا من رُقيةٍ يَعلمانِها ولا سلوةٍ إلا وقد سقياني
وما شفيا الداءَ الذي بي كلَّه ولا ادخرَ نصحاً ولا ألواني
فقالا شفاكَ اللهُ، واللهِ ما لنا بما حملتْ منكَ الضلوعُ يدانِ

ولما أيس من الشفاء تمرض بين أهله زماناً حتى شاع انتحاله في العرب مثلاً وأن ابن أبي عتيق مرّ به يوماً فرأى أمه تلاطف غلاماً كالخيال فسألها عن شأنه فقالت: هو عروة، فسألها نضو الغطاء عنه، فلما شاهده قضى عجباً، ثم استنشده فأنشده: «جعلتُ لعراف اليمامة.. الأبيات». ولما علم الضجر من أهله قال لهم احتملوني إلى البلقاء فإني أرجو الشفاء. فلما حل بها وجعل يسارق عفراء النظر في مظان مرورها عاودته الصحة، فأقام كذلك إلى أن لقيه شخص من عذرة فسلم عليه فلما أمسى دخل على زوج عفراء فقال له: متى قدم هذا الكلب عليكم فقد فضحكم بكثرة ما يتشبب بكم. فقال: من؟ قال عروة، قال: أنت أحق بما وصفته به، والله ما علمت بقدومه. وكان زوج عفراء موصوفاً بالسيادة ومحاسن الأخلاق في قومه، فلما أصبح جعل يتصفح الأمكنة حتى لقي عروة فعاتبه وأقسم بالمحرجات أنه لا ينزل إلا عنده، فوعده ذلك فذهب مطمئناً وأن عروة عزم ألا يبيت الليل وقد علم به فخرج فعاوده المرض فتوفي بوادي القرى دون منازل قومه.

ولما بلغ عفراءَ وفاتُهُ قالت لزوجها: قد تعلم ما بينك وبيني وبين الرجل من الرحم وما عنده من الوجد، وأن ذلك على الحسن الجميل، فهل تأذن

لي أن أخرج إلى قبره فأندبه فقد بلغني أنه قضى؟ قال: ذلك إليك.. فخرجت حتى أتت قبره فتمرغت عليه وبكت طويلاً ثم أنشدت:

ألا أيها الركبُ المحثّون ويحكم بحقٍّ نعيتُمْ عروةَ بنِ حزامِ
فإن كان حقاً ما تقولونَ فاعلموا بأنْ قدْ نعيتُمْ بدرَ كلِّ ظلامِ
فلا لقي الفتيانُ بعدَك راحةً ولا رجعوا مِنْ غيبةٍ بسلامِ

ولما فرغت من شعرِها ألقت نفسَها على القبر فحركت فوجدت ميتة.

ولما قضت دفنت إلى جانبه فنبتت من القبرين شجرتان حتى إذا صارتا على حد قامة التفتّا، فكانت المارة تنظر إليهما ولا يعرفان من أي ضرب من النبات.

وكثيراً ما أنشدت فيهما الناس. فمن ذلك قول الشهاب محمود:

بالله يا سرحةَ الوادي إذا خطرتْ تلك المعاطفُ حيثُ الرند والغار
فعانقيهم عن الصبِّ الكئيبِ فما على معانقةِ الأغصان إنكار

وتوفي عروة بن حزام على ما ذكره الذهبي في تاريخه في خلافة عثمان سنة ثلاثين من الهجرة.

* .* .* *